الفرار إلى جهنم

ما أقسى البشر عندما يطغون جماعيا.. !! يا له من سيل عرم لا يرحم من أمامه !! فلا يسمع صراخهُ .. ولا يمد له يده عندما يستجديه وهو يستغيث .. بل يدفعه أمامه في غير إكتراث ! إن طغيان الفرد أهون أنواع الطغيان ، فهو فرد في كل حال .. تزيله الجماعة ، ويزيله حتى فرد تافه بوسيلة ما .. أما طغيان الجموع، فهو أشد صنوف الطغيان، فمن يقف أمام التيار الجارف !؟ .. والقوة الشاملة العمياء !؟ .

كم أحب حرية الجموع ، وانطلاقها بلا سيد وقد كسرت أصفادها ، وزغردت وغنت بعد التأوه والعناء ولكني كم أخشاها وأتوجس منها !! إني أحب الجموع كما أحب أبي ، وأخشاها كما أخشاه ، من يستطيع في مجتمع بدوى بلا حكومة أن يمنع إنتقام أب من أحد أبنائه ؟.. نعم كم يحبونه !! وكم يخشونه في ذات الوقت هكذا أحب الجموع وأخشاها كما أحب أبى وأخشاه .

كم هي عطوفة في لحظة السرور ، فتحمل أبناءها على أعناقها .. !! فقد حملت " هانيبال " و " باركليز " .. و " سافونارولا " و " داونتون " .. و " روبسبير " .. و " موسيليني " و" نيكسون " وكم هي قاسية في لحظة الغضب !! فتآمرت على " هانيبال " وجرعته السم وأحرقت " سافونارولا " على السفود .. وقدمت بطلها " داونتون " للمقصلة .. وحطمت فكي " روبسبير " خطيبها المحبوب .. وجرجرت جثة " موسيلينى " في الشوارع .. وتقت على وجه " نيكسون " وهو يغادر البيت الأبيض بعد أن أدخلته فيه وهى تصفق !!

يا للهول !! من يخاطب الذات اللاشاعرة كي تشعر !؟ .. من يناقش عقلاً جماعياً غير مجسد في أيِ فرد !؟ من يمسك يد الملايين !؟ .. من يسمع مليون كلمة من مليون فم في وقت واحد !؟ .. من في هذا الطغيان الشامل يتفاهم مع من !؟ .. ومن يلوم من !؟ .. ومن المن ذاته !!؟ أمام هذا اللهيب الأجتماعي الذي يحرق

ظهـري .. أمـام مجتمـع يحبّـك ولا يرحمـك.. أمـام أنـاس يعرفـون مـا يريـدون مـن الفـرد ، ولا يـأبهون لمـا يريـده الفـرد مـنهم .. يفهمـون حقـوقهم عليـك .. ولا يفهمـون واجـبهم نحـوك.. أمـام نفـس الجمـوع التـي سـممت " هانيبـال " ، وأحرقـت " سـافونارولا " ،وهـشمت رأس " روبـسبير " ، والتـي أحبتـك دون أن تخـصص لـك حتـى كرسـياً فـى دار خيالـة ، أو منـضدة فـى مقهـى .. تحبـك دون أن تعبـر عـن ذلـك بـشيء مـادي بـسيط ككرسـي ، أو منـضدة فـى مقهـى .. هـذا مـا فعلتـه وتفعلـه الجمـوع بمثـل هـؤلاء. فبمـاذا أطمـع أنـا –البـدوي الفقيـر التائـه – فـى مدينـة عـصرية مجنونـة .. أهلهـا ينهـشونني كلمـا وجـدوني : إبـن لِنـا بيتـاً غيـر هـذا .. إمـدد لنـا خطـاً أرفـع مـن ذلـك .. إرصـف لنـا طريقـاً فـى البحـر .. إزرع لنـا حديقـة .. إصـطد لنـا حوتـا .. أكتـب لنـا تعويـذه .. أعقـد لنـا قرانـا .. أقتـل لنـا كلبـاً .. أشـتر لنـا هـرّاً !! . بـدوى فقيـر تائـه لا يحمـل حتـى شـهادة المـيلاد.. عـصاه علـى كتفيـه .. لا يقـف أمـام الإشـارة الحمـراء ؟.. ويخاصـم الـشرطي ولا يخـشاه ، ويأكـل بـلا غـسل يديـه .. ويطُـبّ مـا يعوقـه فـى سـيره برجلـه حتـى ولـو أصـاب بـه واجهـة متجـر زجـاج .. أو وقـع علـى وجـه عجـوز شـمطاء .. أو حطـم نافـذة بيـت أبـيض جميـل ، لا يعـرف طعـم الكحـول ولا حتـى " البيبـسي كـولا " أو " الـصودا " .. يبحـث عـن ناقـة فـى ميـدان الـشهداء .. وفـرس فـى الـساحة الخـضراء .. ويحـوش الغـنم مـن ميـدان الـشجرة . هـذه الجمـوع التـي لا تـرحم حتـى منقـذيها ، أحـس أنهـا تلاحقنـي .. تحرقنـي .. حتـى وهـى تـصفق أحـس أنهـا تطـرق .. أنـا بـدوى أمِّـي ، لا أعـرف حتـى صـنعة الـزواق ، ولا أعـرف حتـى معنـى المجـارى .. وأشـرب مـاء المطـر ومـاء البئـر بكلتـا يـديّ .. وأصـقى يرقـات الـضفادع بطـرف عبـاءتي، ولا أتقـن الـسباحة ، لا علـى بطنـي ، ولا علـى ظهـري ، ولا أعـرف شـكل النقـود .. ولكـن كـل مـن يقـابلني يطلـب منـى شـيئا مـن تلـك الأشـياء.. فأنـا لا أملكهـا فـى الحقيقـة ، ولكـن خطفتهـا مـن أيـدي اللـصوص ، ومـن أفـواه الفئـران ، ومـن أنيـاب الكـلاب ، ووزعتهـا علـى أهـل المدينـة باسـم فاعـل خيـر قـادم مـن الـصحراء ، وبوصـفي محـرر عقـود وأصـفاد ، إن ماسـرقته المخالـب وأفـسدته – أحـدهم رفيـق أهـل الكهـف والجـرذان – يحتـاج إلـى وقـت طويـل ، وجهـد أكثـر مـن فـرد .. ولكـن أهـل المدينـة العـصرية المجنونـة يطلبونـه منـى فـى الحـال ، وشـعرت

بأني أنا الوحيد الذي لا أملك شيئا ، ولهذا لم أطلب مثلهم " سمكرياً " و "أسطى" وزوّاقا .. وحلاقاً .. الخ ، وحيث إني لم أطلب ؛ لأني لا أملك ، فصار وضعي متميزا .. بل شاذاً؛ ولهذا تعرضت وأتعرض في كل ساعة تقريبا لهذه المضايقات ، ولكن لا أنكر أني أنا أيضاً ساهمت في ذلك .. وظلمت نفسي ، فأنا سرقت عصا موسى ، وضربت بها الصحراء ، فانفجر نبع ، لأني لا أعرف – كما قلت المجارى ، و " السمكرة " ، والشبكات الضيقة ، وطالبت بأن يريحني هذا النبع من هذه الطلبات وأسبابها ، فحتى تمردي على الشرطي نشر موجة من الأستهتار في المدينة كلها ، وسمعوا بأسمى ، وبعضهم صفق لي ، وبعضهم شتمني ، وشرطة النجدة تريد أن تتخلص مني .. وعجوز كانت أما للشرطي تصابت ، وطمعت فيّ ، وعندما رفضت حاولت أن تخلق لي مشاكل .. وقد يحاربونني بكلاب الشرطة الغبية .. وأنا الذي شجعتهم على أكل الحوت وصيده ، حتى يتركوا لي شياهي .. إنسان بسيط.. وفقير.. لست من سلالة ملكية، بل من سلالة بدوية، ولا أحمل شهادة دكتوراه.. فلا أحب الطبيب ، لأنهم يسمونه دكتورا !! ولهذا لم يتمكن من تطعيمي ضد الحساسية ، فأنا حساس جدا ، خلافاً لأهل المدينة الذين تم تطعيمهم منذ زمان بعيد ، وعلى جرعات تاريخيه من أيام الرومان إلى الترك وأخيرا " الميلكان " .. وأنا كما تقرءون وتضحكون ، لا أنطق مثلكم كلمة (الأمريكان) أو (الأمريكيين) (بالراء) ، بل أنطقها باللام ، لأني لا أعرف معنى أميركا ، فالذي اكتشفها ليس (كولومبوس) ، بل أمير عربي ، ولكن هي تملك القوة .. وتملك العملاء .. وتملك القواعد في مناطق النفوذ .. وتملك حق النقض لمصلحة الإسرائيليين ، وملكت أخيراً بيتاً عند نقطة تفرع فرعي دمياط ورشيد .. وحوله مزرعة جاموس فهي إمبريالية ، إذن هي " أميلكا " هكذا قال الحاج مجاهد ، ولد عمتي عزّة بنت جدتي غنيمة أخت " الكونتيسا ماريا " .

عموما ، أنا جنيت على نفسي بدخولي المدينة طواعية ، ولا وقت لذكر السبب ، المهم ، كان ظرف تجِدّ فحسب ، إذن ، أرخوكم أن تتركوني أرعى شياهي ، التي تركتها في الوادي ، تحت رعاية أمي .. ولكن أمي ماتت وكذلك أختي الكبيرة ،

وقيل : إن لي إخوة ذكورا وإناثاً قد قتلهم " الباعوض " .. أتركوني وهمومي .. لماذا تطاردونني وتعرفونني على صبيانكم ؟ حتى أصبحوا هم أيضا يضايقونني في كل مكان .. ويجرون ورائي .. ويقسمون أنه هو .. لماذا تحرمونني من الراحة ؟ .. بل حتى من المشي في شوارعكم ؟ أنا بشر مثلكم ، أحب التفاح ، لماذا تمنعونني من السوق ؟ .. ثم على فكرة ، لماذا لا تعطونني جواز سفر ؟ .. ولكن ماذا أعمل به ؟ فأنا ممنوع من الخروج لغرض السياحة ، أو العلاج إلا إذا كنت مكلفاً بمهمة فقط ، لذا قررت أن أفرّ بنفسي إلى جهنم .

وسوف أروي لكم قصة فراري إلى جهنم ، وأصف لكم الطريق الذي يؤدى إليها ، ثم أصف لكم جهنم ذاتها ، وكيف رجعت منها مع نفس الطريق .. إنها مغامرة حقاً، ومن أغرب القصص الواقعية ، و أقسم لكم أنها ليست من صنع الخيال .. إني هربت بالفعل إلى جهنم مرتين ؛ فرارا منكم ، ولكي أنجو بنفسي فقط ، إن أنفاسكم تضايقني .. وتقتحم عليّ خلوتي .. وتغتصب ذاتي .. وترغب بنهم وشراهة شرسة في عصري ، وشرب عصارتي ، ولعق عرقي ، ورشف أنفاسي .. ثم تَغُطّني مودعة لتعاود الكرة .. أنفاسكم تلاحقني كالكلاب المسعورة ، ويسيل لعابها في شوارع مدينتكم العصرية المجنونة ، عندما أهرب منها تتعقبني عبر خيوط العنكبوت وورق الحلفاء ، لذلك فررت إلى جهنم بنفسي فقط .

الطريق إلى جهنم ليست كما تتوقعون .. وكما وصفها لنا الدجالون الذين يصورنها لنا من خيالهم المريض ، أصفها لكم أنا الذي سلكتها بنفسي مرتين ، وتمكنت من المنام والراحة في قلب جهنم ، وأقول لكم إني جرّبت ذلك ، وكانت أجمل ليلتين في حياتي تقريباً هما اللتان قضيتهما في قلب جهنم بنفسي فقط .. إن ذلك أفضل عندي ألف مرة من معيشتي معكم .. أنتم تطاردونني ، وتحرمونني من الراحة مع نفسي ، فأضطررت إلى الهروب لجهنم .. إن الطريق إلى جهنم مفروشة طريقي بالبساط الطبيعي على امتداد الأفق ، وأنا أشق طريقي نحوها بفرح وغبطة .. وبعد انحسار البساط وجدتها مفروشة بالرمل الناعم .. وصادفتني أسراب من الطيور البرية من نفس الأنواع التي تعرفونها ، بل وجدت حتى بعض الحيوانات المستأنسة ترتع وتفلي !! ولكني فوجئت بانحدارات شديدة

أمـــامي ، وأرض منخفـــضة حتـــى توقفـــت بتـــردد وإذا بجهـــنم تُطِـــلّ مـــن الأفـــق .. ليـــست حمـــراء كالنـــار .. وليـــست ملتهبـــة كـــالجمر .. وقفـــت – لا خوفـــاً مـــن التقـــدم نحوهـــا ، فأنـــا أحبهـــا ، وأرغـــب فـــى وصـــالها ، فهـــي المـــلاذ عنـــدما تطـــاردونني فـــى مـــدينتكم المثلثـــة .. وعنـــدما تـــراءت لـــي مـــن الأفـــق أمـــامي كـــدت أطيـــر مـــن الفـــرح .. وقفـــت لأســـلك أقـــصر الطـــرق إليهـــا .. وأختـــار أقربهـــا إلـــى قلبهـــا .. ولعلـــى أســـمع لهـــا زفيـــراً، ولكـــن جهـــنم ســـاكنة تمامـــا وهادئـــة للغايـــة .. وثابتـــة كالجبـــال التـــي حولهـــا .. ويحوطهـــا ســـكون عجيـــب .. ويلفهـــا وجـــوم رهيـــب .. لـــم أرَ لهبـــاً .. ولكـــن الـــدخان فقـــط يخّـــيم فوقهـــا .. إنحـــدرت نحوهـــا بـــشوق .. مـــسرعاً فـــى الخطـــى قبـــل مغيـــب الـــشمس ؛ أمـــلا فـــى الحـــصول علـــى مرقـــد دافـــئ فـــى قلبهـــا قبـــل محاصـــرتى بحراســـة جحـــيمكم التـــي انطلقـــت ورائـــي دون وعـــي ، مـــستخدمة أحـــدث وســـيلة وأقـــدم اســـتعمالا .. أخيـــرا اقتربـــت جـــدا مـــن جهـــنم .. واســـتطعت مـــشاهدتها عـــن كثـــب .. وأســـتطيع الآن أن أصـــفها لكـــم كمـــا شاهدتها ... وأستطيع أن أجيب عن أي استفسار يتعلق بجهنم التي اقتربت منها :

أولاً – لجهـــنم شـــعاب مظلمـــة ووعـــرة .. يخّـــيم عليهـــا الـــضباب ، وحجارتهـــا ســـوداء محروقـــة منـــذ أقـــدم الزمـــان ، والعجيـــب حقـــا هـــو أن الحيوانـــات البريـــة وجـــدتها تأخـــذ طريقهـــا إلـــى جهـــنم قبلـــي ؛ فـــراراً مـــنكم ، فحياتهـــا فـــى جهـــنم وموتهـــا فـــيكم .. تلاشـــى كـــل شـــيء مـــن حـــواليّ عـــدا نفـــسي التـــي أحســـست بوجودهـــا أكثـــر مـــن أي مكـــان وزمـــان آخـــر. تقزّمـــت الجبـــال .. ويبـــست الأشـــجار .. وجفلـــت الحيوانـــات ، وغاصـــت فـــى أدغـــال جهـــنم ؛ طلبـــاً للنجـــاة ، وفـــرارا مـــن الإنـــسان ، حتـــى الـــشمس حجبتهـــا عنّـــى جهـــنم ، وأصـــبحت لاشـــيء .. لـــم يبـــق بـــارزاً إلا جهـــنم ، وأبـــرز مـــا فيهـــا قلبهـــا ، فاتجهـــت إليـــه دون صـــعوبة تـــذكر .. أنـــا أيـــضاً ذبـــت فـــى نفـــسى ، ونفـــسى ذابـــت فـــي ، وأحتمـــى كـــل منـــا بـــالآخر وعـــانق كـــل منـــا الثـــاني ، وأصـــبحنا شـــيئا واحـــدا لأول مـــرة ، لا لأن نفـــسي كانـــت خـــارجي ، ولكـــن جحـــيمكم لـــم يعطنـــي فرصـــة لأخلـــو بنفـــسي ، وأتأمـــل معهـــا ، وأناجيهـــا ، وتنـــاجيني .. فـــنحن – أقـــصد أنـــا ونفـــسي – كمجـــرمين خطـــرين فـــى مـــدينتكم ، تخـــضعوننا للتفتـــيش والمـــساءلة ، حتـــى بعـــد أن تثبـــت براءتنـــا ، وتعـــرف هويتنـــا ، تودعوننـــا الـــسجن ، وتطوّقوننـــا بحـــرس شـــديد ، ومـــرادكم دائمـــا أن تحولـــوا حتـــى بينـــي وبـــين نفـــسي ؛ لأن ذلـــك يـــساعد فـــى راحـــتكم أنـــتم واطمئنـــانكم . مـــا أحلـــى

جهنم عن مدينتكم !! لماذا رددتموني مرة أخرى ؟.. أريد أن أعود إليها.. بل أرغب فى أن أسكن فيها .. نفسي التي اكتشفت أنكم شوهتموها ، وحاولتم إفساد طبعها الحميد !!

حاولتم الحيلولة بيني وبين نفسي ، ولكن بفراري إلى جهنم انتزعت نفسي منكم . لا أطمع منكم فى شيء ، احتفظوا لأنفسكم بورق صناديق القمامة .. وتركت لكم خوذتي الذهبية فى القاهرة .. تلك الخوذة الصولجانية التي أنتزعتها من الوكيل بعد أن سمعت وقرأت عنها .. وأن خاتم " شبيك لبيك " يصنع من الذهب المرصعة به .. وأن الذي يلبسها يصبح سلطانا فى التوّ والحين .. ويستطيع الجلوس على كرسي الملك دون إخفاء .. تتنحىّ من أمامه الملوك والرؤساء والأمراء ؛ غصباً .. ويستطيع إحياء الطفلة " معيتيقة " بعد موتها .. وإحياء الشهداء حتى عمر المختار ، وسعدون ، عبد السلام أبو منيار ، والجالط ، والذين استشهدوا جنودا مجهولين . والذي يلبسها تصبح بين يديه أربعة آلاف مليون دينار أو أكثر أو أقل بقليل ، ويمكنه التصرف فيها كما يريد !! عموما ، يصبح فى يديه خاتم " شبيك لبيك " الذي تريده يأتيك .. إذا طلبت سلاحا يصير بين يديك : من البندقية إلى الصاروخ عابر الحدود .. وحتى السراب ، يكون رهن إشارتك ، ناهيك عن الميج والسيخوى ، وتقدر أن تحبس وتطلق من تشاء من الإنجليز برغم أنف تاتشر .. وفى نفس الوقت إذا لبست هذه الخوذة الصولجانية السحرية ، تستطيع النوم بكل كسل ، حتى ولو رأيت الذئب يفترس غنمك أمام عينيك المفتوحتين ، يمكنكم إذن النوم وعيونكم مفتوحة عدة سنوات حتى ولو كنتم بين أكوام من الكناسة والأوساخ ، لقد سمعت من صوت العرب أنكم محرمون من هذه الإمكانية الخلاقة ، وقرأت عن الخوذة الفولاذية .. عفواً .. الصولجانية السحرية .. وسمعت أن إبليس يحمل رقم " صفر زائد واحد " قد استحوذ عليها مدعيا أنه ملاك وشهد له بذلك " تشرشل وترومان " .

وصدقتم أنتم تلك الأكذوبة وانطلت عليكم الخدعة .. وكانت عاقبة أمركم خسرا. إلى أن أحسست بحالكم ، وسمعت خطيب الجمعة فى مساجدكم يقول : إن حالنا لا يخفى عليك ، وعجزنا واضح بين يديك .. ولا ملجأ إلا إليك .. لبيك .. لبيك .